مشاريع إصلاح الشرق الأوسط والربيع العربي: فكرواحد ومبادرات متعددة

د. خليدة كعسيس- خلاصي، أستاذة محاضرة (أ)، جامعة بومرداس
kassis7@hotmail.fr

ملخص:

عندما اجتاحت المظاهرات الشعبية أنحاء العالم العربي في نهاية عام 2010 ومطلع 2011، كان العديد من صناع القرار والمحللون الأمريكيون يأملون أن تكون هذه الحركات بداية لحقبة جديدة في المنطقة،حيث وصف الرئيس باراك أوباما الانتفاضات بأنها "فرصة تاريخية" للولايات المتحدة لمتابعة العالم كما ينبغي أن يكون"، كما عبّرت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون عن ثقتها بأن التحولات من شأنها أن تسمح لواشنطن للمضي قدما لتحقيق "الأمن والاستقرار والسلام والديمقراطية " في الشرق الأوسط. غير أن الولايات المتحدة حذرت لاحقا في تقريرها العالمي السنوي حول حقوق الإنسان بأن آمال الأيام الأولى من يقظة العالم العربي قد اصطدمت مع الواقع القاسي للتحولات الغير مكتملة. وبدلا من الغبطة على نطاق واسع بالديمقراطية القادمة أخيرا إلى المنطقة، نجد تشاءم المرء اليوم بسبب العديد من العقبات والخوف مما سيحدث بعد ذلك إلى درجة إبداء الحنين للنظام القديم.

الكلمات المفتاحية: التحوّل الديمقراطي، الحراك السياسي العربي، مشاريع الإصلاح الشرق أوسطية.

Abstract:

When protests spilled over the Arab world by the end of 2010 and early 2011, many US policymakers and analysts were hoping that these movements will be the beginning of a new era in the region, as President Barack Obama described the uprisings as a "historic opportunity" for the US to go ahead as it should be to be ", as expressed by Secretary of State Hillary Clinton expressed confidence that the transformations that will allow Washington to move forward to achieve" security, stability, peace and democracy "in the Middle East. However, the United States later in the annual world reports on human rights warned that hopes the first days of the vigilance of the Arab world has collided with the harsh reality of the incomplete transformations. Instead of optimism that democracy finally overwhelmed the region, the process has been reversed and nostalgia publicly expressed for the old regime.

Keywords: Democratic transformation, Arab political movement, projects of reform in the Middle East.

مقدمة:

بعد عقود من السكون والجمود وعلى غير المتوقع اندلعت في أكثر من بلد عربي ثورات شعبية عارمة تمكّنت من إسقاط أنظمة وهزّت عروش أخرى، وتكون بذلك قد خلقت واقعا جديدا في المنطقة العربية على المستوى السياسي والاجتماعي من خلال القضاء على حالة الخوف والإحباط التي تكلّست في نفسية المواطن العربي بفعل عقود من الزمن. إلا أن المشهد بكل أبعاده لا يزال غير مكتمل رغم مرور أكثر من ست سنوات على هذا الحراك، ويعود ذلك إلى فقدان هذه الثورات العربية لبرنامج ومشروع سياسي واجتماعي بديل يمكن أن يعيد بناء أنظمة جديدة أكثر ديمقراطية تستجيب لتطلعات وطموحات الشعوب، وذلك دون الاستجابة للضغوطات الأجنبية في وضع تصوّرات وأسس إعادة بناء أنظمتها بكل ما تحمله الكلمة من أبعاد سياسية واجتماعية وفكرية. بمعنى آخر فإن شعار " نريد إسقاط النظام " الذي رفعته كل الحركات الاحتجاجية لم يرافقه شعار آخر بديل يعكس تصوّرا لبناء جديد وعلى أسس متينة ومسار واضح. لذلك نجد أن المنطقة العربية لازالت تعيش على وقع الأحداث والتغيرات المتلاحقة بسبب هذا الفراغ الفكري والسياسي ما يوحي بأن هذا الحراك ليس بفعل عربي داخلي فقط رغم المشاركة الإيجابية وبشكل غير مسبوق للجماهير العربية في هذه الثورات، وإنما هو حراك مبرمج ومحدّد الآليات والأدوات منذ فترة إدارة جورج والكر بوش في إطار فوضى خلاقة ستثمر حسب الطرح الأمريكي ديمقراطية وربيعا سوف يزهر تنمية وازدهارا، **فإلى أي مدى يمكن استشعار سياق الربيع العربي بين سطور المشاريع الأمريكية ؟ وإلى أي مدى يمكننا أن نستشف الدور الأمريكي في الحراك العربي ؟**

I. الإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة الأمريكية في بعدها الجيوبوليتيكي الشرق أوسطي:

الكثير من التفاصيل التي نراها اليوم في المشهد العربي منذ بداية الحراك السياسي، تتقاطع مع ما طرحته هذه الإدارة منذ أكثر من عقد من الزمن ضمن سياق مخططات أمريكية تهدف إلى إعادة رسم الخريطة الجيوسياسية للمنطقة. ويتعلق الأمر" بمشروع الشرق الأوسط الكبير" في 2004 والذي عقبه "الشرق الأوسط الجديد" في 2006، طبعا ولكل عنوان من هذه العناوين سياق دولي ومتغيرات إقليمية عرفتها المنطقة العربية. هذه المشاريع التي عرفت ضجة إعلامية وجدالا سياسيا عندما تحوّلت إلى نقاش بخصوص إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط لتحقيق الدمقرطة والحرية، ثم لاحقا التغيير في خريطته بما يضمن حقوق الأقليات والإثنيات،حيث بات الأمر يبدو وكأن كل ما تفعله الإدارات الأمريكية أصبح مُبرَرا، فهذه البلدان حسب الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولة عن بروز الإرهاب وانتشاره،والأنظمة الاستبدادية فيها مسؤولة عن الفقر وفشل التنمية فيها، وكذا الهجرات غير المشروعة، ومن يحاول امتلاك سلاح الدمار الشامل يكون خطرا على أمن أمريكا والعالم أجمع. وتأسيسا على ما سبق هذا فإن المنطق الغربي عموما والأمريكي تحديدا يقول بضرورة الإصلاح والتغيير في هذه المناطق لتدارك المخاطر كان ذلك بالطرق السلمية أو العسكرية.

لقد شكّلت أحداث سبتمبر 2001 إطارا نظرياً وفكرياً جديداً يتم الاسترشاد به في رسم السياسية الخارجية الأمريكية، إلا أن تبلور الإستراتيجية الأمريكية تجاه المنطقة العربية والشرق الأوسط

لم تكن وليدة أحداث 11 سبتمبر بل ظهرت في عام 1996، وذلك عبر تقرير أعدته لجنة خاصة في وزارة الدفاع الأمريكية والذي حدّد المخاطر والتهديدات التي ينتظر أن تواجهها الولايات المتحدة في المستقبل المنظور (كمل حماد،2004.ص139) حيث انتقلت الإستراتيجية الأمريكية من الإمساك بالأوضاع عبر وكلاء لها في المنطقة على رأسهم إسرائيل إلى وضع اليد بواسطة قواتها. وإن كان ثمة ما يمكن استخلاصه من هذه الوثيقة والتوصيات التي خرجت بها هو تبرير توسع التواجد الأمريكي في المنطقة لإزالة العقبات هناك من خلال إعادة هيكلة المنطقة.

إذن فكرة الإصلاح أو التغيير، هي أهداف إستراتيجية أمريكية أصبحت ضمن أولويات الإدارات الأمريكية منذ فترة جورج والكر بوش، وهي مسألة لا يمكن فهمها إلا إذا حدّدنا موقع المشروع الأمريكي في إطار الإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة الأمريكية التي وضعها المحافظون الجدد وذلك بهدف الانتقال بالولايات المتحدة من مرحلة القيادة إلى مرحلة الزعامة، وإطالة عمر اللحظة الأحادية وأمد التفوّق العالمي لأمريكا وتوطيده (زبيغنيو بريزنسكي.2007.ص218)،عبر الطرح الجيوبوليتيكي الذي يجعل من منطقة الشرق الأوسط نقطة ارتكاز محورية لأي قوة عظمى. فمشروع الشرق الأوسط الكبير الذي طرحته الولايات المتحدة هو جزء من إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي التي ترى أن الحوار التاريخي الذي ستواجهه أمريكا في القرن الحادي والعشرين سيكون مع الصين وروسيا وهي الدول التي صنفتها الدراسات المستقبلية بدول الخصم (حسين معلوم.2002.ص16).

إذا اعتبرنا بأن مفهوم الإستراتيجية الكبرى في السياسة الدولية هي كيف تعرّف الدولة مصالحها، والتهديدات التي تستهدف هذه المصالح وكذا وسائل التعامل معظمها، فإن المشهد السياسي في منطقة الشرق الأوسط يعكس ذلك إلى حد كبير. فلقد حدّد زبغنيو بريزنسكي أولويات المصالح الأمريكية في المناطق الجغرافية الأكثر أهمية بالنسبة للولايات المتحدة، وهي آسيا وأوروبا وروسيا والشرق الأوسط، باعتبار أن أوراسيا هي رقعة الشطرنج التي تستمر عليها لعبة الصراع من أجل السيادة على العالم،و أن اللاعبين الأساسيين يقعون في غرب رقعة الشطرنج وشرقها ووسطها وجنوبها. كما جعل المنافسين الجيوسياسيين الرئيسيين للولايات المتحدة الأمريكية هما روسيا والصين. وانطلاقا من هذه الدلالة الجيواستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط كانت الحرب على العراق (منطقة القلب بالمنظور الجيوبوليتيكي) ليس من أجل إسقاط نظام ديكتاتوري أو تحييد قوة مهددة لأمن المملكات الخليجية، أو القضاء على أكثر الدول عداءً لإسرائيل بقدرما كانت لفرض قيود أكثر على الفاعلين الإقليميين خاصة الباحثين منهم عن دور إقليمي قوي من جهة· ولتحييد وتطويق روسيا والصين على مستوى آخر. فاحتمال صعود الصين وروسيا وحتى أوروبا كقوى منافسة للولايات المتحدة الأمريكية مستقبلا من أجل السيطرة العالمية يستدعي الإمساك بنقطة مفصلية هي الشرق الأوسط التي تحتوي على حقول النفط الأساسية في العالم والممرات البحرية الاستراتيجية. بهذا تمتلك الولايات المتحدة مفاتيح ابتزاز الاقتصاديات الكبرى، ومن هذه الزاوية تتوافق خريطة الشرق الأوسط الكبير مع الاستراتيجية الأمريكية في أبعادها النفطية من خلال السيطرة على احتياطات بحر قزوين، والجغرافية عبر تطويق القوى الصاعدة جيوسياسيا.

لو عدنا إلى قراءة مضمون الوثيقة لوجدنا بعض الإجابات على الأسئلة العديدة بخصوص عدم قدرة الدول العربية الخروج من نفق الفوضى، وعجزها عن إعادة هيكلة نفسها في إطار معطيات

جديدة ومن خلال قوة الدفع الهائلة التي خلفها الحراك العربي،و ذلك ضمن إقليم يعرف تجاذبات قوى إقليمية ودولية، ما يبرز بأن المنطقة تمر اليوم بمرحلة تاريخية ومصيرية.

يستطيع المتتبع لشؤون منطقة الشرق الأوسط أن يعطي مؤشرات وأدلّة كثيرة على أن الأحداث التي تمرّ بها المنطقة اليوم ليست وليدة عهد جورج بوش الابن كما أن المؤسسات الأمريكية لم تبدأ بوضع وتنفيذ مخططاتها في الشرق الأوسط فقط بعد أحداث 11 سبتمبر 2001. فالمشروع الأمريكي المسمى بـ "الشرق الأوسط الكبير" في 2004 الذي طرحه الرئيس جورج بوش الابن عقب انتهاء العمليات العسكرية في العراق بالتوصيف الأمريكي، ليس جديدا ولم يظهر كنتيجة لتداعيات أحداث 2001، إنما هو إحدى المراحل المتقدمة للإستراتيجية الموضوعة لهذه المنطقة والتي ستكتمل بمشروع "الشرق الأوسط الجديد"2006 الذي أعلنت عنه وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس عقب انتهاء الحرب بين حزب الله وإسرائيل والهادف إلى إحداث خلخلة في المنطقة لتحقيق التغيير المنشود. وعلى الرغم من أن المشروع هو في أساسه قديم، إلا أن اختلاف الظروف الإقليمية والدولية والتغيرات التي عرفتها المنطقة جعلته يبدو كأنه جديد. وبغض النظر إن كانت هذه المشاريع تخدم مصلحة الأمة والوطن والمنطقة إجمالا أو تضّر بها، سنحاول استعراض رؤية واعية لفهم الخلفيات والأهداف المرجوة منها من خلال قراءة وتحليل مضامينها.

II. قراءة في مضمون المشاريع الشرق أوسطية الأمريكية:

1- وثيقة "مشروع الشرق الأوسط الكبير"2004

بعد القراءة المتأنية لمضمون ومحتوى مبادرة "الشرق الأوسط الكبير" التي سرّبتها الإدارة الأمريكية لصحيفة " واشنطن بوست" أوائل شهر فيفري 2004، ثم نشرت نصها صحيفة" الحياة اللندنية "في 13 فيفري 2004 وتبنتها مجموعة الثمانية في قمة "*Sea Island*" بجورجيا الأمريكية في جوان 2004، سؤال جوهري يفرض نفسه، هل مشروع الشرق الأوسط الكبير هو فعلا حرب على الإرهاب ؟ أم من أجل الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان ؟ أم أنه لاستهدافات أخرى؟

بداية يمكننا القول بأن المشروع اعتبر أن المنطقة تقف على مفترق طرق وأن المطلوب هو السير في طريق الإصلاح وأن دول مجموعة الثمانية أبدت هذا الخيار منوّهة "بالشراكة الأوروـ متوسطية" و"مبادرة الشراكة الأمريكية مع الشرق الأوسط". كما اعتمد المشروع على تقريري الأمم المتحدة حول التنمية البشرية العربية لعامي 2002- 2003 أين حُدّدت النواقص الثلاث:" الحرية- المعرفة-تمكين النساء" ومنه خرجت باتفاق حول ضرورة الإصلاح في المنطقة بكل أبعاده السياسية الاقتصادية والاجتماعية من خلال ثلاثية مغربة: تشجيع الديمقراطية - بناء مجتمع معرفي - توسيع الفرص الاقتصادية.

مبدئيا هذه الأمور لا يختلف عليها اثنان كمطالب اجتماعية وشعبية، لكننا حينما نخرج من العموميات إلى التفاصيل ومن المعلن إلى الخفي،و عندما يخضع المضمون للقراءة والنقاش يبرز التباين الشديد وتتّضح العديد من القضايا التي يمكن أن نقرأ في ضوئها مستجدات اليوم، و هذا ما سوف نحاول إبرازه من خلال التطرق إلى المحاور الثلاث المعتمدة كقاعدة للإصلاح.

- **تشجيع الديمقراطية والحكم الصالح:** باعتبار أن الحرية والديمقراطية ضروريتان لازدهار المنطقة، وهما مفقودتان فيها إلى حد كبير باستثناء النموذج الوحيد المتمثل في إسرائيل، يدعو المشروع إلى إجراء انتخابات حرة في دول المنطقة، من خلال تقديم المساعدات التقنية، التدريب على الصعيد البرلماني خاصة فيما يتعلق بالنساء، تطوير وسائل الإعلام المستقلة، تشجيع دول المنطقة على مكافحة الفساد، دعم قيام منظمات المجتمع المدني خاصة الغير الحكومية، زيادة التمويلات الخاصة بها، وتزويدهم بالخبراء القانونيين والإعلاميين.

عندما طرح المشروع في حينه لم يكن المطلوب هو تغيير الأنظمة رغم تأكيده على أن مشاكل المنطقة تعود إلى غياب المشاركة السياسية والانغلاق السياسي، لكن في نفس الوقت نستشف أن التأكيد على التدريب على العمل الإعلامي ودعم منظمات المجتمع المدني الغير حكومية وصرف التمويلات الخاصة بها كان بمثابة تحضير الأرضية لبعض الحركات التي تلقت تدريبات خارج بلدانها سواء في الجانب الإعلامي أو السياسي، وما عرف بشباب "الفايسبوك"،إضافة إلى التمويلات الضخمة التي تلقتها لتكون على أهبة الاستعداد حينما تتوفر الظروف لذلك، وبالفعل كان لها دور كبيرا في تحريك الشارع العربي.

للعلم فإن جميع الإدارات الأمريكية السابقة قد ساهمت في إقامة وحماية الأنظمة العربية الحليفة والحامية لمصالحها في المنطقة، لذلك فإن الدعوة الأمريكية للتغيير في بعض الدول ليس من أجل مصلحة الشعوب بقدر ما هو لضمان استمرارية مصالحها، فإن كانت بعض الأنظمة قد استنفذت دورها وقدرتها على حماية المصالح الأمريكية فإن الدعوة الأمريكية للتغيير الديمقراطي في هذه الفترة لا تهدف إلى إزاحة هذه الأنظمة بل إلى ترميم صورتها ومدّها بعوامل الاستمرار بما يمكِّن من استمرار دورها السابق.

في هذا السياق جاء في تقرير" معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى " أن الشرق الأوسط قد يكون المنطقة الوحيدة في العالم التي قد يؤدي فيها أحد عناصر الديمقراطية الأساسية أي الانتخابات إلى خلق مشكلات أكثر من حلّها، خاصة إذا ترتّب عليه استبدال الأنظمة غير الديمقراطية ولكنها صديقة بأنظمة ديمقراطية معادية للغرب. ويشير التقرير إلى وجود تيارين، يرى الأول أن الديمقراطية يجب ألا تُطبّق في الشرق الأوسط، أما الثاني فينادي بتشجيع الديمقراطية بحذر وعلى خطوات.

- **بناء مجتمع معرفي:** تعتبر المعرفة هي الطريق إلى التنمية في عالم يتسم بعولمة شاملة وبما أن المنطقة تعرف فجوة معرفية فقد اقترح المشروع مبادرة التعليم بالتركيز على محو الأمية خاصة عند المرأة وإصلاح التعليم، مبادرة تدريس إدارة الأعمال من خلال عقد دورات تدريبية وإقامة شراكات بين مدارس الأعمال ومجموعة الثمانية.

تبدو هذه المبادرات من الأهداف السامية والمهمة في حياة المجتمعات في ظل عالم تحوّل إلى قرية تركّزت فيها التقنية وتداخلت بشكل لا يمكن التفاعل دونها، غير أن خطورتها هي في مواضيع ومضامين الإصلاح التعليمي المطلوب وأهدافه.

في هـذا السـياق نشـرت صـحيفة "الأسـبوع المصـرية" في عـددها 350 بتـاريخ 17 نـوفمبر 2003 تقريـرا مسـرّبا مـن مستشـارين بالخارجيـة الأمريكيـة والأمـن القـومي يتضـمن تفصـيلا للتحسـينات الجوهريـة المـراد إدخالهـا على الـنظم التعليميـة في مصـر مـن أجـل نشـر الأفكـار التي تحـثّ على التعـايش مـع الآخـرين وذلـك مـن خـلال تـدريس مبـادئ مسـتوحاة مـن اليهوديـة والمسـيحية بجانـب الإسـلام وتطـوير التعلـيم الأزهـري مـن أجـل تحـديث الخطـاب الـديني. كمـا توصـلت عشـرات الأبحـاث الأمريكيـة التي صـدرت بعـد أحـداث 11 سـبتمبر إلى نتـائج أساسـية بُنيـت عليهـا الكثيـر مـن التصـوّرات الإسـتراتيجية الأمريكيـة لمنطقـة الشـرق الأوسـط، أهمهـا أن الخطـر الكبير الـذي يهـدّد المصـالح الغربيـة في الشـرق الأوسـط هـو الأصـولية الإسـلامية، وأن الحلـول الأمنيـة لـن تـؤت ثمارهـا لأن المنـاخ السياسـي والاقتصـادي والثقـافي الـذي تعيشـه الـبلاد العربيـة يفـرز بـذور الإحبـاط والغضـب وخيبـة الأمـل التي تسـتثمرها الحركـات الأصـولية لتجنيـد الأعضـاء وتكـوين الخلايـا. فقـد اعتبـر زبغنيـو بريزنسـكي بـأن الحكومـات الفاشـلة هـي التربـة الرئيسـية التي تولّـد التطـرف الإسـلامي، وأن السياسـات الخاطئـة لهـذه الحكومـات لإجـراء تغييـر اجتمـاعي ضـخم هـي التهديـد الرئيسـي لمصـالحنا الإسـتراتيجية. وعليـه إذا اسـتمرت هـذه الظـروف فإنهـا مرشـحة لتفـريخ الإرهـابيين والمتطـرفين الإسـلاميين، بالتـالي لا يمكـن القضـاء على الإرهـاب دون إحـداث تغيـرات جذريـة. فـإلى جانـب نشـر الديمقراطيـة والتحـوّلات الاقتصـادية يجـب تغييـر منـاهج التعلـيم. الهـدف إذن هـو تغييـر وجـه المنطقـة ومناخها الإيديولوجي.

إذن على الولايـات المتحـدة أن تـدفع الأنظمـة العربيـة باتجـاه الديمقراطيـة وانفتـاح السـوق وإصـلاح الأنظمـة التعليميـة، ممـا سـيؤدي إلى تحـوّل اجتمـاعي واسـع مـن خـلال تغييـر ثقافـة النـاس واهتمامـاتهم واتسـاع نطـاق الفئـات المجتمعيـة المتـأثرة بالثقافـة الغربيـة ومقولاتهـا الفلسـفية،و نمـو نسـبة المثقفـين والسياسـيين والشـباب الـذين يرتبطـون بالمؤسسـات الغربيـة سـواء على الصـعيد الفكـري أو السياسـي والـذين يصـوغون الخطـاب السياسـي والإعلامي ويعملـون على مـلء الفـراغ الفكـري والثقـافي بـدلا مـن الحركـات الأصـولية. وهنـا ينتقـل ميـدان مواجهـة الحركـات الإسـلامية إلى داخـل المجتمعـات العربيـة مـن خـلال العمـل على تجفيـف منابعهـا الفكريـة والتعليميـة (المسـاجد، المـدارس الدينيـة) ومـن خـلال التـأثير على رافدها البشري (شريحة الشباب)، أي حرب الأفكار بتعبير دونالد رامسفيلد.

وعـن طبيعـة التحـوّل الثقـافي وأبعـاده في الرؤيـة الأمريكيـة يقـول الخبير الأمريكي "انغـل هـارت" في مقـال لـه في مجلـة "Foreign Policy" عـدد أكتـوبر 2003 بعنـوان " الصـدام الحقيقي للحضـارات" بـأن صـامويل هنتنغتـون قـد أصـاب في أطروحتـه "صـدام الحضـارات" نصـف الحقيقـة،فإذا كانـت السّـمة الأساسـية للصـراع العـالمي في المرحلـة القادمـة تكمـن في الجانـب الثقـافي إلا أن المشـكلة ليسـت مرتبطـة بـالقيّم السياسـية في العـالم الإسـلامي كمـا ظَـن هـانتنغتون، لكنهـا مرتبطـة بالثقافـة الاجتماعيـة لهـذه الشعوب.

إذن حقيقـة الإصـلاح المنشـود وفـق الرؤيـة الأمريكيـة لا تتوقـف عنـد حـدود القـيّم السياسـية وإنمـا تتعـداها إلى التغييـر في التركيبـة الثقافيـة للمجتمعـات مـن خـلال تغييـر منـاهج التعلـيم، الخطـاب الـديني وغيرهـا مـن العناصـر التي تعمـل على تـذويب الخصوصـية وطمـس الهويـة والقـيّم الاجتماعيـة المرتبطة بها.

- **توسيع الفرص الاقتصادية:** اقترح المشروع إنشاء صناديق عدة للتمويل بهدف تجسيرالهوة الاقتصادية بين دول الشرق الأوسط الكبير والدول الصناعية. ويشمل الصندوق تمويل المشاريع، تسهيل انضمام دول الشرق الأوسط لمنظمة التجارة العالمية وإنشاء مناطق تجارة حرة لتشجيع التبادل الإقليمي المشترك.

إن الباب السحري للازدهار والديمقراطية حسب المشروع هو تعزيز القطاع الخاص والدعوة إلى تحوّل اقتصادي كبير على غرار ما حصل في دول أوروبا الشرقية، وهذا يظهر هشاشة المبادرات المطروحة تحت محور توسيع فرص العمل حيث أن دعم القطاع الخاص وإزالة الحواجز الجمركية وفرض تحويل المشاريع يحدث بما يتفق مع مصالح الشركات الاستثمارية الغربية خاصة الأمريكية كما يحتفظ بإدارة هذه المشروعات إذ تبقى المبادرات في يد المؤسسات التابعة لدول الثمانية. ومن الوسائل الاقتصادية المستخدمة ربط التحوّل الديمقراطي بالمعونات، وهو ما يعطي هذه الأداة طابع المَنْح بدل المَنْع من خلال تقديم المساعدات من قِبل المخابرات الأمريكية أو من قبل وكالة التنمية الدولية أو الصندوق القومي للديمقراطية الأمريكي. أما الشكل الغير مباشر للعلاقة الاقتصادية فيكون عبر تقديم المساعدات لهيئات المجتمع المدني.

- **الأهداف الحقيقية للمشروع**

تنظر الولايات المتحدة والغرب إلى المنطقة العربية والإسلامية على أنها مجال طمع ومصدر خوف في آن واحد، إذ يمثّل الشرق الأوسط الكبير **تحدّيا وفرصة** فريدة للمجتمع الدولي. فمن جهة هو خزّان للثروة النفطية وسوق استهلاكية، ومن جهة أخرى هو مصدر للتطرف والإرهاب وتهديد لمصالح الغرب. وبين الطمع والخوف صيغت عبارات الإصلاح.

لم يأت المشروع خارج سياق الاستراتيجية الأمريكية، فهو يأخذ مناحي متعددة كونه يدخل في إطار استراتيجية ليست مبينة على معطيات آنية وإنما تأخذ أبعادها بناءً على الاستراتيجية الكبرى المحكومة بمصالح الكارتلات الاقتصادية العابرة للحدود.كما لم يكن باستطاعة الولايات المتحدة تحقيق ذلك دون القيام بعملية تفكيك للمنطقة بدأتها بعد حرب 1973 أدّت إلى اتفاقية كامب ديفيد عام 1979 وإخراج مصر (منطقة الارتكاز الجغرافي)عن ريادتها للمنطقة كدولة محورية، وصولا إلى حرب الخليج الثانية عام 1991 التي أكّدت الضعف والشقاق العربي حيث أصبح الاعتماد على قوة أجنبية لحماية الأمن الإقليمي والاستقواء بالأجنبي سببا في مزيد من اختراق المنطقة ودليلا على ضعف وهشاشة النظام الإقليمي العربي. كما أن تداعيات 11 سبتمبر 2001 على الأمن العربي قد عزّزت الهيمنة الأمريكية التي أعطت لنفسها حق التدخل المباشر دون الاحتكام إلى الشرعية الدولية، فكانت الحرب على العراق واحتلاله في 2003، وازدياد التدخل في السودان إلى غاية تقسيمه، وإشعال الحرب الأهلية في سوريا،بالإضافة إلى التهديدات المستمرة لإيران سواء بخصوص أسلحة الدمار الشامل أو دعم الإرهاب أو عدم احترام حقوق الإنسان. فلم تعد الإدارة الأمريكية تكتف بالمطالبة بإصلاح الحكومات، وإنما باتت تطالب أيضا بإصلاح أحوال المجتمعات.

بعد استكمال عملية **التفكيك** يأتي الآن دور أو عملية إعادة **التركيب** من خلال تقويض أسس هذا النظام أو ذاك حتى وإن كان في خدمة المصالح الأمريكية نفسها، وذلك بإضعافه على مستويين:

الأول: كونه نظاما متخلفا ولم يعد صالحا للحكم باعتباره معاديا لتطلعات الشعب،سيؤدي إلى الاحتقان ثم الانفجار،و هو وضع لا يمكن للمصالح الأمريكية أن تستمر في ظلّه.

الثاني: كونه نظاما ضعيفا إلى الحد الذي باتت الأجهزة الأمنية مسيطرة على مساراته السياسية، سيؤدي ذلك حسب وجهة النظر الأمريكية إلى قيام الشعب بالتمرد مما سيضرّ بمصالحها.

لذلك يأتي المشروع في إطار تركيب جديد على عدة مستويات:

سياسيا: بإدخال نظم سياسية واقتصادية واجتماعية متناقضة مع طبيعة النظم العربية القائمة.

إيديولوجيا: إرساء منظومة قيمية معاكسة لوعي الشعوب أي متناقضة مع العروبة والإسلام.

جغرافيا: توسيع الدائرة الجيوسياسية الأمريكية من حدود الجمهوريات السوفياتية سابقا إلى الفضاء المتوسطي وانتهاءً بالقرن الإفريقي لاستكمال الدائرة.

لم تستنفذ الولايات المتحدة المشاريع والرؤى للسيطرة والهيمنة على المنطقة ومنها على العالم، فجاءت بالمشروع الجديد القديم " الشرق الأوسط الكبير" أو أي شرق أوسط آخر فهو قديم في الإستراتيجية الأمريكية ولكنه جديد في الشكل والأدوات. لذلك فإن الدوافع الحقيقية للمشروع الإمبراطوري الأمريكي تكمن في أن المبادرة تُشكِّل مدخلا لقيام أحلاف عسكرية إقليمية جديدة بقيادة وسيطرة أمريكية، أهمها احتكار القرار النفطي الإنتاجي والتسويقي والاستئثار بالامتيازات النفطية وإبعاد القوى المنافسة (كأوروبا واليابان والصين) عن مصادر النفط العربية وأسواقها. والتحكم بمعدلات نموهم الاقتصادي وبالتالي التقليل من قدراتهم التنافسية.

إن ما تحتويه الخطة الأمريكية من بنود معلَنة من تشجيع على الديمقراطية وتوسيع المعرفة وتطوير التنمية هي بنود إيجابية صيغت بمفردات إنسانية تجعل الدفاع عن المشروع أمرا مطلوبا ورفضه أمرا يرتدّ على صاحبه. أما حين نبحث عما وراء تلك المفردات الجميلة والمشاريع الطيبة والنوايا النبيلة، وحين نحاول أن نقرأ مالا يقوله المشروع ومالا يعلنه نجد نقاط التقاطع مع إفرازات الربيع العربي كثيرة تعكسها الفوضى التي أصبحت واقعا يوميا في كل من ليبيا واليمن وسوريا وغيرها من الدول العربية. رغم ذلك فنحن لا نرفض الإصلاح أو التغيير والتقدم لمجرد أن الفكرة أمريكية، ولكن لأننا نريد إصلاحا نطرحه ونُعدّه بناءً على فهمنا نحن لمشكلاتنا والصيغ الأنسب لحلها، ونريد تغييرا مستوحى من صميم أزماتنا الداخلية بكل أبعادها. فرفض السيناريوهات الغربية عموما والأمريكية على وجه الخصوص، واعتبار الربيع الغربي جزء من مخطط أمريكي عالمي لا يُسقط ولن يُسقط حاجة البلدان العربية إلى إصلاحات جذرية في مقدمتها الإصلاحات السياسية.

2- "الشرق الأوسط الجديد " 2006هل هو فعلا طرح جديد؟

لقد كان العدوان على لبنان في صيف 2006 حربا إسرائيلية – أمريكية على اعتبار ما قامت به الآلة العسكرية الإسرائيلية من دمار وتخريب من جهة، وما قدّمته الآلة السياسية والديبلوماسية الأمريكية من دعم لإسرائيل من جهة أخرى. كما كان فرصة لطرح فكرة ولادة شرق أوسط جديد عبر "الفوضى البناءة" التي بشرّت بها وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس.

لقد كان مشروع "الشرق الأوسط الكبير" في 2004 بمثابة نقطة انطلاق لنظام جديد في المنطقة وبغرض إحداث التغيير فيها لاسيما أنه يُمثّل إسقاطًا جغرافيًا وتاريخيًا للنظام الإقليمي العربي عبر إقامة نظام شرق أوسطي تسوده العقائدية المذهبية والعرقية وجعله مجالاً مفتوحًا للصّراعات وعدم الاستقرار. أما سيناريو "الشرق الأوسط الجديد" في 2006 فهو بمثابة إعادة تعريف وتحديد الحدود السياسية بالنسبة لشعوب وأقليات المنطقة. وهذا يعني إعادة التوزيع الفضائي الفعلي للأقليات الدينية التي تعيش هناك. ومؤشرات هذا التقسيم موجودة في العراق ويجري العمل على إثارته في لبنان وسوريا وغيرهما.

رغم ما قيل عن المأزق السياسي والأمني للاحتلال الأمريكي للعراق، فإن ذلك لا يعني أن نغفل ولو للحظة أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أوجدت باحتلالها العراق واقعا جيوسياسيا جديدا في المنطقة بالرغم مما يقال عن هزيمة سياسية أمريكية هناك.

تقوم الخطة الأمريكية الجديدة إذن على استعمال ورقة الأقليات لزعزعة استقرار ووحدة دول المنطقة التي قد تؤدي إلى مواجهات عنيفة تتفكك على إثرها الدول إلى دويلات طائفية وعرقية أو تزيد من ضعفها. فالدولة في الشرق الأوسط بطبيعتها الحالية ومنذ انهيار الدولة العثمانية هي دولة قومية بالأساس تضم عددا كبيرا ومتنوعا من الأعراق والطوائف والقوميات. وبطبيعة الحال فإن الدول المستهدَفة هي الدول الأكثر تنوعا مثل العراق، السودان، لبنان، سوريا وغيرها،و ذلك من أجل إعادة صياغة الواقع العرقي والطائفي وفق تركيبة تتناسب المخططات مع الأمريكية التي تهدف إلى تحقيق عدة أهداف منها:

- إضعاف الدولة القومية مما يسهّل عملية الاختراق الأمريكية للدول التي ترفض التغيير بحسب الوصفة المقدمة على الطريقة الأمريكية.

- ضمان عدم التحام هذه الأقليات والطوائف وانسجامها مع الأغلبية في أي بلد من بلدان الشرق الأوسط وفي أي إطار جامع لضمان أنها ستكون بحاجة إلى مساعدة خارجية، ومن أجل أن تبقى برميل بارود يمكن تفجيره في الوقت الذي تراه القوى الغربية مناسبا بحجة حمايتها.

- استعمال ورقة الأقليات هو تبرير لوجود إسرائيل وتوسيع رقعة النزاعات الإقليمية والعرقية والقومية لإشغال العالم العربي والإسلامي. بمعنى تقسيم المُقسَّم أصلا وتجزئة المُجزّأ حتى تصبح القضية الفلسطينية في آخر اهتمامات الشارع العربي والإسلامي، وهو أمر أصبح واقعا مجسدا اليوم.

- إفساح المجال أمام إسرائيل للتغلغل في هذه الدول المنقسمة عرقيا ومذهبيا، وأكراد العراق نموذج حي وكذلك مسيحي جنوب السودان.

أما الهدف النهائي من هذه المشاريع المطروحة بين وقت وآخر والملامح التي تجمع بينهما هي:

أولا: تلتقي هذه المشاريع في أهداف دعائية كثيرة منها تحقيق الأمن والتنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

ثانيا: تحرّك هذه المشاريع وتنمّي النزعة الطائفية وتستهدف وحدة الأمة العربية والإسلامية.

ثالثا: تفتيت المنطقة إلى طوائف وهو حلم إسرائيلي قديم يتفق مع طبيعة إسرائيل الديمغرافية حيث ستتخلص من عقدة النقص البشري ويصبح الكانتون الإسرائيلي من أهم الكانتونات العرقية المجاورة، وبذلك التخلص من المفارقة بين القوة العسكرية الإسرائيلية الكبيرة وبين الخوف على الذات والقلق من المستقبل والتي تعكس حالة تاريخية معروفة وهي المجتمع -الدولة المصطنعة في غير بيئتها.

رابعا: يبقى الحصول على البترول هدفا رئيسيا في كل هذه المشاريع ذلك أن الصين ستصبح أول مستهلك للبترول خلال العقود المقبلة، وعليه تُستعمل المنطقة كنقطة ارتكاز للتحكّم في محاصرة القوى الصاعدة.

و هنا يمكن القول مرة أخرى بأنه من الصعب الحديث عن ربيع عربي بمنأى عن تحليل التوازنات الدولية المرتبطة بوضعية الليبرالية الغربية وما تعرفه من أزمات منذ عام 2009 لنلاحظ بأن الربيع العربي يتصادف مع خريف الرأسمالية على حد تعبير سمير أمين.

إن "الفوضى الخلاقة" المبشر بها والتي ستحدث إصلاحا لم تترك مجالا للشك على أن ما تعيشه المنطقة العربية من عدم استقرار وأزمات بكل تداعياتها ما هي إلا إحدى مراحل الإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة الأمريكية التي ترى في المنطقة نقطة ارتكاز لتحقيق أهدافها الكونية، كما أن مثل هذه الأطروحات غير معروفة النتائج، إذ لا توجد ضمانات على أن انتشارها سيؤدي بالضرورة إلى الاستقرار، كما لا يستبعد أن يبقى الإرهاب في المنطقة وتزداد مبررات وجوده للقيام بحرب استنزاف ضد الولايات المتحدة نفسها. ولعل أوضاع الدول العربية منذ بداية ربيع الثورات أبرز دليل على ذلك.

خاتمة

لقد أدّت أحداث 11 سبتمبر2001 إلى حدوث هزة في واشنطن مفادها التشكيك في العلاقات طويلة الأمد مع حلفائها في المنطقة العربية. والحُجة التي سيقت في هذا الإطار كانت عدم توافر مناخ ديمقراطي في دول المنطقة، وهو ما أدى بالإدارة الأمريكية حينها برئاسة بوش الابن إلى تغيير النهج الذي تبنته الإدارات السابقة.

وإذا كانت الفترة الأولى من إدارة بوش هي خوض حربين من أجل تغيير النظام في كل من العراق وأفغانستان، فإن الفترة الثانية من إدارته قامت على إعادة تأهيل النظام وهيكلته في المنطقة من خلال نشر قيّم الحرية والديمقراطية فيها وهذا عبر مجموعة من المشاريع والمبادرات. فالتغيّر الذي طرأ على لهجة الخطاب السياسي لإدارة بوش من حرب "مكافحة الإرهاب" إلى كفاح من أجل "الحرية وضد الاستبداد" لا يعكس أي تغيّر جوهري في الإستراتيجية الأمريكية بقدر ما ينمّ عن محاولة تكيّف للمشاريع الأمريكية، وجليٌّ أن هذه الإستراتيجية هي أقرب ما تكون إلى مشاريع استعمارية تستعير

الديمقراطيـة لحـل المشـاكل والتحـديات التي تعيشـها المنطقـة، كونهـا تقـرن مكافحـة الإرهـاب وتحقيـق التنمية بإحلال الديمقراطية فيها.

لا يمكـن فهـم الإسـتراتيجية الأمريكيـة في إعـادة بنـاء شـرق أوسـط جديـد، والـذي يـدخل ضـمن إسـتراتيجية الهيمنـة، إلا مـن خـلال معرفـة الإدراك الجيوبـولتيكي الأمريكـي للشـرق الأوسـط عبـر المراحـل التاريخيـة. وفي محاولـة للـربط بـين الحاضـر والماضـي حـول إسـتراتيجية القـوى العظمى في المنطقـة العربيـة نجـد أن موقفهـا الثابـت هـو عـدم إقامـة أو وجـود قـوة إقليميـة أو عالميـة تهـدد الولايـات المتحـدة. ولا زالـت الولايـات المتحـدة تـرى أن احتـواء القـوة الصـين وروسـيا الاتحاديـة وحتى الاتحـاد الأوروبـي مسـتقبلا يـأتي بالسـيطرة الشـرق الأوسـط موقعـا وبتـرولا. فمنطقـة الشـرق الأوسـط تشـكّل أهميـة حيويـة للاسـتراتيجية الأمريكيـة لكونهـا مرتكـزا إقليميـا مهمـا في التـأثير علـى شـكل التوازنـات الدوليـة، خاصـة مـع الصـين وروسـيا،أي الـدول الكبـرى خـارج المنظومـة الغربيـة والمؤهلـة للعـب أدوار موازنـة علـى السـاحة الدوليـة مسـتقبلا، بالتـالي يـتم التوظيـف الكـوني لفضـاء الشـرق الأوسـط مـن أجـل إضـعاف هـذه الـدولو اسـتباق محاولات تمدد نفوذها.

إذن الرهـان هـو تنـافس القـوى العظمى على النظـام العـالمي والهيمنـة بكـل أبعادهـا، ومـا دول الشـرق الأوسـط إلا حجـارة دومينـو أو لوحـة شـطرنج تـتم عليهـا لعبـة الكبـار بـأدوات وبمسـميات عديـدة هي الحريـة والديمقراطيـة وحقـوق الإنسـان. فالولايـات المتحـدة لـم تسـتنفذ مخزونهـا في طـرح المشـاريع مـن أجـل السـيطرة والهيمنـة،و هكـذا يـأتي أي شـرق أوسـط كبيـرا كـان أو صـغيرا، جديـدا أو قـديما، فـلا فـرق بـين الخريطـة القديمـة للشـرق الأوسـط والجديـدة المقترحـة. فـالأولى مجـزأة والثانيـة هـي تجزئـة التجزئـة حتى تتناسـب مـع طبيعـة المرحلـة. فـإذا كانـت سـايكس بيكـو 1916هي تجزئـة جغرافيـة سياسـية أفقيـة فالمشـاريع الأمريكيـة هـي تجزئـة جغرافيـة سياسـية ثقافيـة عموديـة متجهـة إلى العمـق تسـتهدف خصوصـية الأمـة ومصيرها مستقبلا.

إن مشـروع الشـرق الأوسـط الكبيـر المقتـرح في 2004 والهـادف ظاهريـا إلى تحقيـق إصـلاحات سياسـة اقتصـادية واجتماعيـة وتعليميـة في العـالم العربـي هـو في حقيقتـه وسـيلة لتفتيـت المنطقـة وفـق نظريـة الفوضى الخلاقـة،و هـو نفسـه المطـروح في صـيغة قـد تبـدو مختلفـة في 2006 تحـت عنـوان مشـروع الشـرق الأوسـط الجديـد. ومـا يحـدث اليـوم في المنطقـة العربيـة لـيس ببعيـد عـن مضـامينه، إذ لا يمكـن إرجـاع الحـراك العربي اليـوم إلى عامـل واحـد، فالأكيـد أن الشـعوب قـد لعبـت دورا هامـا في إحـداث الحـراك في البِـرَك الراكـدة دون الـتمكّن مـن التغييـر في منـابع هـذه الأخيـرة، كمـا أن اتّسـاق المشـاريع والأهـداف الأمريكيـة مـع إرهاصـات الثـورات العربيـة وتقاطعهـا مـع مسـاعي الفوضـى الخلاقـة لـيس بضـامر بـل أصـبح واقعا تعيشه المنطقة منذ سنوات.

قائمة المراجع:

- كمال حماد: من حلف بغداد إلى الشرق الأوسط الكبير، مجلة شؤون الأوسط، العدد 115، صيف 2004.
- زبيغنيـو بريزنسـكي: رقعـة الشـطرنج، التفـوق الأمريكـي وضـروراته الجيواسـتراتيجية الملحـة، ترجمـة سـليم أبراهام،منشورات دار علاء الدين،سوريا، الطبعة الثالثة،2007.
- حسين معلوم: الإستراتيجية الأمريكية في وسط آسيا، مجلة السياسة الدولية، العدد 147، جانفي 2002، .

- برادلي أ.تـاير: السـلام الأمريكـي والشـرق الأوسـط، ترجمـة عمـاد فـوزي شـعيبي، الـدار العربيـة للعلـوم، الطبعـة الأولى2004.

-زبيغنيو بريزنسكي: رقعة الشطرنج، التفوق الأمريكي وضروراته الجيواستراتيجية الملحة،مرجع سابق .

- http://katehon.com/ar/article/bryjnsky-yqtrh-sysy-mryky-jdyd-tjh-rwsy-wlsyn

- عبـد الرحمـان عبـد الرحمـان النقيـب: مشـروع الشـرق الأوسـط الكبير وتداعياتـه السياسـية والاقتصـادية والتربويـة، دار السلام، الطبعة الأولى،2010،ص 132-133.

- http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2004/06/20040610152556ibhews.

- وليـد عبـد الحي: علاقـة السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة بـالتحولات في الـوطن العربـي، مجلـة المسـتقبل العربـي، العدد267، ماي2001.

- الشرق الأوسط الكبير والإصلاح المنشود، مركز حوار التنمية والإعلام، www.hwar.org

- زبغينيـو بريزنسـكي: السياسـة الخارجيـة الأمريكيـة وتحـديات القـرن الحـادي والعشـرين، مجلـة شـؤون الأوسط،جانفي 1999 .

- شمعون بيريز: الشرق الأوسط الجديد، ترجمة محمد حلمي عبد الخالق، الأهلية للنشر، عمان 1994.

- محمد سليمان أبو رمان: البعد الثقافي في مشروع الشرق الأوسط الكبير، www.alahrar.net

- ماجد كيالي: الثابت والمتحول في إستراتيجية الولايات المتحدة في المنطقة 20/05/2006 www.amin.org.views.

- وجيه مطر: مشروع الشرق الأوسط الكبير وسيادة الأمة، مارس 2004، موقع مجلة فلسطين، www.hwar.net

- محمـد مـداد: السياسـة الأمريكيـة تجـاه الـوطن العربـي بـين الثابـت الاسـتراتيجي والمتغيـر الظرفي، الطبعـة الأولى، دار المنهل اللبناني، بيروت، 2009.

- د. حسـن أبـو طالـب: العـدوان والفوضـى والخيـارات العربيـة البديلـة، التقريـر الاسـتراتيجي العربـي 2005-2006، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة،2006 .

- Jean François Daguzan: La méditerranée au prisme du nouveau panorama stratégique (du partenariat de Barcelone au grand moyen orient), Revue Défense Nationale, mai 2004.